

فيروس كورونا والتغير والتغيير الاجتماعي

مع بروز أحداث التغير الذي أحدثه فيروس كورونا في أنحاء العالم، برزت الحاجة الإنسانية إلى ضرورة القيام بالتغييرات؛ أيّ المعالجات اللازمة لمواجهة ذلك التغير، وهذه التغييرات عبارة عن أهم الأفكار والممارسات والقيم الواجب اتباعها للمعالجة والوقاية والحماية من ذلك الفيروس، ومن ثم عدم انتشاره، خاصة وإن مسألة انتشاره سوف تؤدي لا محالة إلى إحداث تغييرات غير معروفة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية والعلمية.

وسوف أحرص في هذه المقالة أن أرسم الخطوط العريضة لموضوع التغير والتغيير الاجتماعي وعلاقتهما بفيروس كورونا؛ لتبدو لنا الصورة أكثر واضحًا.

ويعد موضوع التغير والتغيير من الموضوعات المهمة في علم الاجتماع، والمرتبطة ارتباطًا وثيقًا بنشأة وتطور المجتمعات البشرية.

وانطلاقاً من ارتباط التغير مباشرة بالتغيير، فإننا نروم من وراء كل ذلك أن نفهم الحاجة المجتمعية إلى عمليات التغيير المنظمة والخلاقة التي نستطيع من خلالها تجاوز فجوات التي ربما ستحدثها عمليات التغير - فيروس كورونا- سواء أكانت سلبية أم إيجابية، خاصة في ظل توسع وانتشار الفيروس كما نود لفت انتباه غير الاختصاصيين في علم الاجتماع إلى وجود ارتباط بين المفهومين، إضافة إلى حقيقة أخرى وهي كيفية توظيف مفهوم التغيير في حل الكثير من المشكلات المجتمعية، والسعي نحو بناء مجتمع خلاق أفضل، وحسب اعتقادي فإن أدوار الباحث في علم الاجتماع يكمن في السعي الدؤوب نحو كشف وفهم وتفسير الواقع المجتمعي، بغية إنتاج أفكار وتصورات جديدة، فمن دون عقل جديد لا يمكن أن يقوم اجتهاد جديد.

والتساؤلات البارزة التي تطفو على السطح في هذا الصدد، هي:

- ما المقصود بالتغير والتغيير؟
- هل هناك فروق بينهما؟
- من يقود اختيارات ومسارات التغييرات التي تحدث في المجتمع؟

بادئ ذي بدء نود أن نُصّارح القارئ منذ البداية بأن إجاباتنا على هذه الأسئلة سيكون من خلال محاولة تبسيط وتسهيل المفهومين - التغير والتغيير - دون اللجوء إلى عمق التأطير المفاهيمي والتصورات النظرية التي صاحبتهما، بحيث يتم استيعابهما لغير المتخصصين، بغية فهم الوقائع الاجتماعية الحاصلة مع انتشار فيروس كورونا، وتكييفها مع الواقع المجتمعي المعاش، وسنحاول في سياق هذه المقالة بناء تعريفاً عاماً نافعاً للمفهومين.

ما المقصود بالتغير؟

التغير في اللغة: كما جاء في المعجم العربي الأساسي: يعني "أصبح على غير ما كان عليه، تبدل" وهو أيضًا "تحول صفة أو أكثر من صفات الشيء، أو حلول صفة محل صفة أخرى" (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1988، ص 908).

ما المقصود بالتغير الاجتماعي؟

في حين يقصد بالتغير الاجتماعي: هو كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه، أو وظائفه خلال فترة زمنية محددة، والتغير الاجتماعي على هذا النحو ينصب على كل تغير يقع في التركيب السكاني للمجتمع، أو بنائه الطبقي، أو نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية، أو في القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدد مكانتهم وأدوارهم" (بدوي، 1987، ص 213).

ويُعد التغير الاجتماعي بهذا المعنى ظاهرة مستمرة تشهدها الحياة الاجتماعية، ولا تزال حتى يومنا هذا، بالتالي يمكن القول بأن التغير الاجتماعي هو الحياة الاجتماعية، فالحياة الاجتماعية تتكون من تغيرات مستمرة لا تتوقف: وعليه فعندما "تنتهي هذه التغيرات، فإن الحياة نفسها تنتهي". (سكوت، 2013، ص 96). كما يمكن التمييز بين أنواع متعددة من التغيرات الاجتماعية حسب نطاقها وأهميتها، فهناك فمثلاً: التغير في التركيب مثل إعادة الانضمام إلى مجموعة أو الهجرة، والتغير في الهيكل مثل نشوء قيادة جديدة، والتغير في الوظائف مثل حالة الحراك المهنية، والتغير في الحدود مثل حالة الغزو، والتغير البيئة مثل حدوث زلازل كبيرة. (سكوت، 2013، ص 98)

في حين يمكن أن نطلق على انتشار فيروس كورونا وتداعياته الحالية بأنه تغير في حالة الصحة.

ومع كل ما سبق يمكن القول بأن التغير الاجتماعي هو: ظاهرة مرتبطة بالمجتمعات البشرية كافة، كما أنه عملية لا إرادية، وغير مقصودة، وتتعدد وتتنوع مجالاته، كما أنه مرتبط بفترة زمنية محددة، ويكون التغير تبعاً لمجاليه ونطاقه أثار سلبية أو إيجابية في الحياة الاجتماعية تارة، أو كلاهما تارة أخرى.

ما المقصود بالتغير الاجتماعي؟

يعني التغير الاجتماعي بأنه عملية مقصودة ذات أهداف محددة مسبقاً، وهو عبارة عن أفكار وتصورات، وخيارات ومسارات واضحة، تهدف إلى معالجة الآثار السلبية، الناجمة عن عمليات التغير الاجتماعي، كما يتم خلال هذه العملية مراجعة وتقويم أساليب الحياة للوصول إلى حياة أفضل، حيث سيكون هناك عدة

مسارات وخيارات متاحة، كما سيكون هناك سعي حثيث للحصول على القبول المجتمعي لتلك التغييرات المطلوبة، لجعلها تندمج ضمن أفكار وممارسات وقيم المجتمع وكأنها جزءاً منه.

لا شك أن القارئ قد لاحظ بعد هذا الاستعراض السريع للمفهومين وجود تباين واضح بينهما، وهذا ما يُفسر بأن - مكانيزما- عمل كل منهما مختلفة عن الآخر، ولكن يُلاحظ في الوقت نفسه وجود ارتباط بينهما، حيث يقوم أحدهما على الآخر ويعتبر نتيجة لازمة له.

آليات عمل التغير والتغيير الاجتماعي مع انتشار فيروس كورونا

لقد لاحظنا أنه مع انتشار فيروس كورونا - التغير - في أنحاء العالم فجأة، - والذي لا ندري ما هي وجهته، كما أننا لا نزال نجهل إلى أين سيقودنا- ، امتد ذلك التغير إلى كل شيء، سواء على مستوى العلاقات الاجتماعية، أم الاقتصادية أم السياسية، أم البيئة، أم الأفكار، أم الممارسات، أم القيم، كانت النتيجة الكثير من الآثار السلبية، منها على سبيل المثال: وجود الأعداد الكبيرة من المصابين والقتلى، إضافة إلى الإيقاف الجزئي لحركة المواصلات البرية والجوية، وقفل بعض الحدود، وتقليص ساعات العمل، وإيقاف الدراسة بالمؤسسات التعليمية، وبروز حالات من الفرع والخوف، وتضييق العلاقات الاجتماعية.

عموماً كل ذلك أدى في مجمله إلى أحداث حالات من عدم الاتزان في جل المجتمعات، فبرزت حالات من الرفض أو مقاومة لذلك التغير الحاصل، مما أدى إلى زيادة عدد المصابين وأعداد القتلى، وتحول بعض حالات الخوف والفرع إلى حالات الانتحار، وزادت حالات قفل الحدود، وأصبح هناك إيقاف كلي لحركة المواصلات البرية والجوية، ف وقعت بعض المجتمعات في انتكاسات وانهيارات كبيرة نتيجة لاستمرار عدم تقبلها للتغير الحاصل سواء على مستوى الأفكار أم الممارسات أم القيم المجتمعية.

وهنا قد يقفز إلى الذهن سؤال جوهري وهو: ما الأسباب التي تؤدي إلى رفض أو مقاومة أفراد المجتمع

التغير؟

أنه من الوهم أن نعتقد بأن حالات الرفض أو المقاومة للتغير الحاصل تكون مقصودة، أو إرادية، أو واعية، ولكنها تظهر بشكل تلقائي؛ لتكون معبرة أو مجسدة للأفكار والممارسات والقيم المتعارف عليها في المجتمع، وحتى نقرب المعنى أكثر يمكن ان نشير إلى أن أفراد المجتمع خلال عملية التغير يتصرفون ويتحركون ويفكرون بالطريقة المعهودة، وهذا يعني بأن عقلية أفراد المجتمع تكون مصبوغة بصبغة الانقياد والتسليم نحو أفكار وممارسات وقيم محددة، وما وجدوا عليه آباءهم، نتيجة لسنين الطويلة من استقرارها في حياتهم اليومية، فيصبح هناك اعتقاد وتصور راسخ بالتسليم لها، بالتالي يصبح أفراد المجتمع غير مهيبين لتقبل التغير الجديد الحاصل في حياتهم.

ما الذي يتوجب القيام به بعد حدوث التغير؟

في الحقيقة لتجاوز مرحلة التغير – الانتقالية- وما تحدثه من انتكاسات، وانهيارات، وفجوات غير متوقعة، وقد تكون عنيفة؛ الأمر بحاجة إلى الانتقال لمرحلة جديدة وهي: التغير الاجتماعي.

وهذا يعني إن المجتمع وأفراده سيكونون في حالة من الترقب، وهي حالة ازدواجية يعيشها أفراد المجتمع ما بين التغير والتغيير، حيث سيتم تحديد وإعداد وبناء التصورات والخيارات والمسارات الذاتية الأفضل والأحسن، وهي تصورات وخيارات ومسارات مقصودة تهدف للانتقال بشكل نهائي إلى مرحلة التغيير، وهذه العملية ليست بالسهلة، أو أنها يمكن أن تتحقق دون حدوث أي مشاكل، وللمزيد من الإيضاح والتبسيط يمكن القول بأنه في هذه المرحلة قد تحدث بعض الاختلالات أو التعثرات التي قد تهز عقلية أفراد المجتمع، وسيكون هناك تراجع لمد التغيير أمام رفض أو مقاومة التغير، في حين سيكون التغيير -ربما- تدريجيًا بالتالي فإنه لن يلفت الانتباه إليه.

وعلى كلٍّ، فإنه من يُدقق النظر ويُحسن التدبر يستطيع أن يدرك بسهولة بأن عملية الانتقال إلى التغيير في المجتمع يتطلب بالضرورة تضافر الجهود الحكومية، والمجتمعية لتنفيذ تلك التصورات والخيارات والمسارات البناءة والمقصودة لتجاوز الاختلالات والتعثرات، ويصبح الأمر جليًا في بعض المجتمعات عندما تصبح تلك الأزمات والانهيارات حافزًا للتغيير، والإخفاقات تُشكل نجاحًا من خلال الاستفادة منها، عندها سيكون هناك انتقال الكلي إلى مرحلة التغيير المقصودة.

إذن المتمعن في ظاهرتي التغير والتغيير سوف يدرك بسهولة، وبشكل جلي وجود ذلك الارتباط بين المفهومين، ويمكن رصد ذلك من خلال عملية الانتقال من التغير إلى التغيير، كما تتجلى أماننا تلك العلاقة من خلال قيام التغيير بتجسير الهوة التي يحدثها التغير في المجتمع، وهذا ربما يدفعنا إلى طرح تساؤل

مهم وهو لماذا يأتي التغيير بعد التغير؟

سأحاول قدر الإمكان تبسيط إجابة التساؤل المطروح، حيث لا يمكن فهم طبيعة العلاقة بين التغير والتغيير خارج إطار العلاقات الترابطية السببية، فالتغير يؤدي إلى التغيير، وهذا يدفعنا إلى البحث عن الوظائف المناطة بعملية التغيير؛ وذلك للولوج إلى إجابة للسؤال المطروح، والتي يمكن تحديدها في التالي:

1. تهيئة المجتمع وأفراده وإقناعهم بتقبل الجانب الإيجابي للتغير، وذلك من خلال توضيح النواحي الإيجابية التي يمكن الاستفادة منها، وجني ثمارها، فعملية التهيئة لن تكون بالمهمة السهلة، وهذا الأمر مرتبط بعدة عوامل منها على سبيل المثال: الخلفية التعليمية، والعوامل الثقافية لأفراد المجتمع؛ والتي تشمل العقائد الدينية، وأنظمة التواصل والاتصال مع القيادات السياسية.

2. السعي الحثيث نحو طرح التصورات والأفكار والاختيارات والمسارات بغية معالجة الآثار المترتبة على التغير، والتي تمثل النواحي السلبية، إضافة إلى مراجعة وتقويم البناء الاجتماعي للوصول إلى حياة اجتماعية أفضل.

إذن فهناك مفارقة سيوسولوجية لافتة للانتباه وهي متى وجد التغير لابد من التغير، ولا يمكن الإلمام بمسألة التغير خارج دائرة التغير الحاصلة في المجتمع، حيث يعمل التغير على تخفيف آثار التغير، كما يقوم في الوقت نفسه بتعظيم الأفكار والممارسات والقيم الجديدة، بغية تحقيق حياة أفضل.

وهنا يبرز السؤال التالي: من الذي يقود عمليات التغير في المجتمع؟

بادئ ذي بدء ينبغي أن نعلم أنه لتجاوز مرحلة التغير فالأمر بحاجة إلى وجود إرادة سياسية جادة من قبل الحكومات، كونها هي من سيقود عمليات التغير في المجتمع، فهي من يجب أن يقود قاطرة التغير، وهذا لا يعني بأنها تتحمل كاهل المسؤولية لوحدها، فهناك مؤسسات أخرى يُناط بها أدوار جد مهمة في عملية التغير، منها على سبيل المثال: مؤسسات المجتمع المدني، ومؤسسات ذات العلاقة بالتنشئة الاجتماعية مثل المؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام والمساجد، البيت... إلخ.

تأت بعد ذلك مرحلة مهمة والتي يمكن أن نسميها بالمرحلة النقدية حيث يتم من خلالها تحديد: ماذا نريد من التغير؟. وهو يعني الحاجة إلى فهم التغير المطلوب؛ من خلال السعي نحو إنتاج الأفكار ورسم التصورات التي تبحث عن إجابات للسؤال المذكور.

ومن ثم تأت مرحلة جديدة، وهي مرحلة التنفيذ، وهي السعي الحثيث للحصول على إجابات للتساؤل التالي وهو: هل ذلك ممكن التحقيق؟. فيتم خلال هذه المرحلة إعداد وبناء الاختيارات والمسارات المطلوبة لتنفيذ ما تم إنتاجه من أفكار أو رسمه من تصورات.

وهنا لن يخفي على فطنة القارئ أهمية ألا تكون تلك الأفكار والتصورات معزولة عن واقعها الاجتماعي، ومعني هذا ببساطة شديدة أن تكون ممكنة التحقيق؛ بحيث تقوم بمعالجة وتصحيح الأخطاء، وتعمل أيضاً على تجسير الفجوات والتخلص من الإحباطات والاختلالات؛ وصولاً إلى تحقيق التوازن، ورضا بالحياة الاجتماعية، التي يشعر بها أفراد المجتمع، بشكل أفضل وأحسن.

إذن آليات تحقيق التغير في المجتمع يتم من خلال مرحلتين متميزتين؛ فالأفكار والتصورات مثل: البذور ستتمو باتجاه دورها الاجتماعي؛ إذا وجدت التهيئة والتوجيه المناسب، وستُعطي من ثم المحصول المطلوب.

المراجع:

1. بدوي، أحمد زكي (1987). معجم مصطلحات الرعاية والتنمية الاجتماعية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني ط1.
2. سكوت، جون. (2013). علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة محمد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2
3. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (1988). المعجم العربي الأساسي، تونس.